هل نفتح الحدود مع غزة؟

بقلم: محمد سلماوي

لماذا لا تفتح مصر حدودها مع غزة بشكل نهائي فيدخل الاخوة الفلسطينيون إلي رفح والعريش ليحصلوا ليس فقط علي احتياجاتهم الغذائية كما حدث في الأسبوع الماضي حين فتحت الحدود لفترة محدودة، ولكن ليحصلوا أيضا علي العمل الذي لا يجدونه تحت الحصار الذي فرضته عليهم قوات الاحتلال الصهيوني وعلي المسكن وعلي الإقامة الدائمة أيضا إذا أرادوا؟ أليست مصر الشقيقة الكبري التي تحتضن كل العرب والتي تعتبر فلسطين قضيتها الأولي؟

كانت تلك إحدي الأفكار التي طرحت في لقاء وزير الثقافة الفلسطيني الدكتور إبراهيم إبراش مع الأدباء أعضاء اتحاد كتاب مصر منذ أيام بمقر الاتحاد بالزمالك، وقد طرح أحد المتحدثين هذا السؤال قائلا: أليس في هذا نهاية لمعاناة الفلسطينيين في غزة؟ فكان رد الوزير الفلسطيني واضحا لا لبس فيه حيث قال: نعم فيه نهاية لمعاناتنا اليومية لكن فيه أيضا نهاية حلم الدولة الفلسطينية في كل من غزة والضفة الغربية، لأن فتح الحدود في الوقت الذي سيربط غزة بمصر فإنه سيقطع أيضا صلتها نهائيا مع الضفة الغربية.

ولاشك أن الدكتور إبراش وهو يقول ذلك كان مدركا للمخطط الذي يحاك منذ زمن لإلهاء الفلسطينيين عن الضفة الغربية والعمل علي توطينهم في سيناء عبر قطاع غزة، وهو

المخطط الذي حل محل مخطط سابق حيث كان يقال إن الأردن هي الدولة الفلسطينية فلماذا تقام دولة ثانية؟ أليست الغالبية العظمي من سكان الأردن من الفلسطينيين؟ ولكن منذ ذلك الوقت مرت كثير من المياه تحت الجسور وتغيرت الأوضاع فلم تعد الضفة الغربية في وضع مماثل لما كانت عليه قبل أكثر من عشرين عاما حين كان المتصور إذا تم الانسحاب منها أن تشكل مع الأردن الدولة الفلسطينية المقصودة، فاليوم يزيد عدد المستوطنات اليهودية في الضفة عن المدن الفلسطينية ذاتها حتي يبدو - حسب ما روي الوزير الفلسطيني - أن الفلسطينيين هم المستوطنون في أرض معظم تجمعاتها السكانية يهودية.

إن ذلك الوضع إنما يوحي بأن الحصار المفروض الآن علي غزة له أهداف أخري أبعد من مجرد معاقبة الفلسطينيين علي قذفهم الصواريخ علي إسرائيل، فهو يرمي إلي عزل غزة ليس فقط عن إسرائيل وإنما أيضا عن الرئة الثانية في الجسد الفلسطيني وهي الضفة الغربية، وبذلك تصبح غزة وحدها هي حدود الدولة الفلسطينية التي تنطبق عليها الشروط التي وضعها بوش فطربنا لها دون أن نعي مقصده منها، مثل تأكيده أن تكون الدولة الفلسطينية المقصودة متصلة الأراضي لا انقطاع

فيها، فها هي غزة أرض واحدة متصلة فهل كان بوش يقصد غزة؟ وهل كان يعرف أنه بعد انتهاء زيارته مباشرة ستبدأ إسرائيل تنفيذ ذلك المخطط فتعزل غزة بهذا الشكل الذي شهدناه في الأيام الأخيرة؟

إن إحدي العقبات أمام مثل هذا السيناريو تتمثل في أن الوجدان الفلسطيني في غزة مازال يميل غربا إلي الضفة حيث القدس وبيت لحم والجليل وحيفا ويافا ورام الله، حيث أشجار الزيتون وبيارات البرتقال وحيث نهر الأردن، فكيف يتم تحويل الولاء الفلسطيني شرقا؟ بحصار غزة وتجويعها وقطع الغاز عنها والكهرباء، ثم فتح الحدود بينها وبين مصر فتتدفق الجموع الفلسطينية إلي رفح والعريش ومنها إلى بقية مدن سيناء التي قد تستقر فيها وتكون بذلك قد أسست بداية الدولة الفلسطينية المنشودة.

ولا احسبني بحاجة للتعليق علي سذاجة مثل هذا التصور الذي من الغريب أن يصدر عمن يعرفون قيمة الارتباط بالأرض والذين رفضوا أن تقوم دولتهم اليهودية في الأرض التي عرضت عليهم في إفريقيا مؤكدين ارتباطهم بـ أرض الميعاد وحدها، لكن يبدو أن الاحتلال الاستيطاني وما يمثله من جشع توسعي يعمي الأبصار عن الحقائق الساطعة سطوع الشمس، ومع ذلك فلا ينبغي أن نركن إلي كون هذا المخطط غير قابل لتحقيق الهدف المراد منه وهو دفع الفلسطينيين للتنازل عن الضفة الغربية، وإنما علينا أن نتعامل معه ونساعد علي عدم تنفيذه لأنه لن يسقط من تلقاء نفسه.

وعلي سبيل المثال: هذا القول بارتباط غزة والضفة الغربية يعني أنهما ليستا منفصلتين؟ لكن الحقيقة هي أنهما الآن قد انفصلتا بالفعل، ومن فصل بينهما لم يكن الاحتلال الإسرائيلي وحده وإنما القوي الفلسطينية الحاكمة في كل منهما، وليس هناك غير الشعب الفلسطيني نفسه الذي يدفع ثمن ذلك الانفصال بين سلطة فتح في الضفة الغربية وحكومة حماس في غزة.

لقد كان الشعب الفلسطيني عبقريا حين انتخب رئيسا مفاوضا ممثلا في محمود عباس وبرلمانا مقاوما ممثلا في حماس، لكن لا هذا ولا ذاك أدرك مغزي تلك الرسالة، وتصور كل منهما أنه وحده المنتخب فأراد أن ينفرد بالحكم باعتبار أن وجود الآخر غير شرعي وهكذا حدث الاقتتال الذي لم تكن إسرائيل تسعي لأكثر منه، والذي أوصل الحلم الفلسطيني إلي طريق مسدود أخطر ما يمكن أن يحدث له الآن هو أن يفتح أمامه طريقا جديدا ليس إلي القدس والضفة وإنما إلي رفح والعريش.